لماذا رفض سارتر الجائزة ؟

بقلم عبد الفتاح الديدي

يشعر المتابع لصحافتنا الادبية هذه الايام بأن مشكلة رفض الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر لجائزة نوبل تشغل حيزا كبيرا من المقالات . ويتساءل اكثر الكتاب : لماذا رفض سارتر الجائزة ؟ وماذا يعني رفض سارتر للجائزة ؟ وانقسم الكتاب الى طائفتين : احداهما تنعي عليه رفض الجائزة . وثانيتهما تقر موقفه وتؤيد رفضه لها . وكلا الطائفتين يحاول ان يجد اسبابا وجودية او غير وجودية لموقف سارتر من الجائزة . وبعضهم يرجعها الى حالة من الحالات النفسية المرضية التي تحتاج الى علاج .

ولا شك انني شخصيا اجد طرافة في التعليقات الادبية والصحفية التي كتبت بهذا الصدد . فهي فعلا تعليقات غاية في الطرافة . انظر مثلا الى ما قاله محمد عفيفي في مجلة المصور : « لم تكن جائزة نوبل لتضيف شيئا الى سارتر . فهل كان يمكنها ان تسلب منه شيئا ؟ هل كان سارتر لينزل في عيني لو انني رأيته ماشيا وفي جيبه دفتر الشيكات ؟ اعتقد انها حالة من حالات المازوكية المتنكرة في صورة كبرياء . وليت سارتر قبض ذلك المبلغ لكي يعينه على دفع اتعاب الطبيب النفسي . »

وقال فكري اباظة في نفس العدد من مجلة المصور : « لم افهم لماذا اعتذر الفيلسوف سارتر الفرنسي عن عدم قبوله جائزة نوبل . حاولت ان افهم فلم استطع . ولم تقنعني فلسفته ولا شهرته بل اعتبرت الاعتذار تقليعة فلسفية لا طعم لها ولا ذوق فيها » .

وتعددت الملاحظات التي ابداها كتابنا حول مسألة رفض سارتر لجائزة نوبل . ولا شك ان لهذه الملاحظات طرافة كبيرة لانها تعكس فهم ادبائنا لامثال هذه المواقف وتكشف عن اساليبنا في ادراك هذه الامور . بل انها تفضح اسلوب تفكيرنا ازاء مثل هذه الاحداث التي تعد في الواقع من صلب الاوضاع الروحية والفنية في العالم .

وقد كثرت تعليقات الصحف حول هذا الموضوع . ولكن احدا لم ينفذ الى قلب المشكلة الحقيقي . لم يحاول احد ان يستطلع حقيقة الامر داخل سياقها الوجودي . كذلك لم يحاول احد ان يبين اهمية الحدث بالنسبة الى الوضع الفكري العام الذي تصرف سارتر على ضوئه هذا التصرف . فمن اليسير جدا على اي كاتب ان يجري قلمه ببعض عبارات الثناء او الخدش لسلوك سارتر ازاء هذه الجائزة . ولكن المهم هو ان نفطن الى الابعاد التي تساند موقفه والى الاطار الذي تتجلى داخله عملية رفض الجائزة بوضوح .

ولننظر اولا فيما اذا كان تصرف سارتر ذاك مبنيا على عقيدة سياسية معينة . الواقع ان شهرة سارتر السياسية قد طبقت الافاق . انه الانسان الذي يؤمن بواقع اشتراكي انساني مزود بكل وسائل التحرير الحقيقي للفرد ، وانسانية واقعه الاشتراكي هي التي تجعله اليوم مثلا فريدا في الايمان بالنظرية الاشتراكية ذاتها . ذلك ان سارتر يندهش اساسا امام الموقف الوصفي الماركسي الذي يهتم بمقتضات الادوات الصناعية . انه يبدي اندهاشه امام التعبيرات الماركسية التي تلتفت التفاتا خاصا الى الضرورات التي تفرضها وسائل التصنيع . ويثبت سارتر نظريته الجديدة في هذا الموقف مشيرا الى ان المسألة ليست مسألة خضوع لما تقتضيه الادوات الصناعية بقدر ما هي مسألة مبادلة مع هذه المقتضيات .

لقد استطاع ماركس واخرون من بعده ان يكشفوا عن مظاهر خضوع الانسان للمادة خلال عرضهم لمشاكل الصناعة في مجتمع القرن التاسع عشر . فهذا المجتمع يقوم كله على عملية الارتباط بالفحم والحديد . فالفحم بوصفه مصدرا للطاقة يحدد بنفسه الوسائل التي تتيح لهذه الطاقة ان تكون ذات فاعلية . واذ يقوم الفحم بتحديد هذه الوسائل والادوات الصناعية الجديدة يقوم ايضا بتحديد مناهج واساليب جديدة لصنعة الحديد . وابتداء من هنا تظهر القاطرات البخارية والسكك الحديدية والاضاءة بالغاز وخلاف ذلك من الصناعات . ويتطلب هذا التعقيد المادي والالي تقسيما للاعمال في التو . او بتعبير اخر يقضي ظهور المناجم والمصانع بظهور اصحاب رؤوس الاموال والفنيين الصناعيين والعمال .

ولا شك ان ماركس واتباعه قد لاحظوا كيف كان بزوغ الفحم والحديد داخل المجتمع شرطا من شروط الاخلال بالنظام الطبقي واعادة تنظيمه من جديد . وكان ذلك سببا ايضا في ابتكار مشغوليات وهيئات جديدة كما ادى الى تنويع شديد والى اختلافات جوهرية في نظام الملكية وغيره من النظم . كلنا يعلم ذلك . اما ما يبدو محيرا في هذا الامر فهو ان زوال الصناعات القديمة وبروليتارية الفلاحين قد ظهرت ونمت ابتداء من الغنى الاسطوري الذي

صارت تتمتع به الانسانية وابتداء من تقدمها الهائل في وسائلها الفنية الصناعية .

وهذا هو ما يشير اليه سارتر خاصة في نظريته السياسية . فالتقدم الاجتماعي الذي أصبح انسان العصر الحاضر يتمتع به انما جاء نتيجة لهذه الظروف . لا بد ان نفهم في رأي سارتر كيف امكن ان تصبح هذه الواقعة الايجابية مصدرا للانقسامات الحاسمة داخل المجتمع المشتغل بالعمل ؟ ينبغي ان نفهم مؤديات هذا الوضع في جميع صوره الطبقية والاستغلالية والمادية والاجتماعية .

سيكون من الاصوب بلا شك في رأي سارتر ان التصنيع كعملية ارتباط انساني بالعمل وان نلقي بذلك ضوءا جديدا على كل الاوضاع التي تعرض لها التاريخ . فأسير الحرب مثلا في الحروب القديمة كان يتحول الى عبد . وهذا نوع من التقدم بلا شك لان تحويل الاسير الى عبد قد تم على اساس ارتباط هذا الاسير بنوع من العمل. وهذا امر محير فعلا ولكنه واقع واضح بذاته . لقد اضفت طبيعة الارتباط بالعمل لونا جديدا على مشكلة العبودية نفسها . ذلك اننا اذا نظرنا الى مشكلة الرق في ذاتها بوصفها مشكلة تحويل الانسان من اسير الى عامل اصبح هناك في التو نوع من التقييم للعمل الى جانب التقدير للانسان كامكانية للعمل . وبهذا نكتشف ايجابية الحدث من حيث هو نوع من طرح الانسانية والطابع الانساني على الحروب .

هناك اذن في رأي سارتر حركة ديالكتيكية وعلاقة ديالكتيكية داخل عملية تصنيع الحقيقة المادية . وهذه الحركة تنشأ بين الفعل بوصفه عملية نفي للمادة في نظامها الحاضر وعند اعادة تنظيمها مستقبلا وبين المادة كمساند حقيقي طيع للتنظيم الجديد الذي نحن بصدده بوصفها نفيا للفعل . ولا يمكن التعبير عن هذا النفي للفعل خلال حدوثه الا بعبارات من طبيعة الفعل ذاته . اعني — او يعني سارتر على وجه التحديد — ان نتائجه الايجابية كما تتبدى في تشكيلات الاشياء تتحول ضد نفسها وفي نفسها على صورة مقتضيات موضوعية وسلبية على السواء .

ولم تعد هناك اية غرابة في هذا كله اليوم . فنحن ندرك تماما ضرورة التغيير الاجتماعي وفقا للابسات التعقيد المادي وصناعاته الفنية . اننا نستطيع اليوم ان نفهم كيف تحدد الالة ببنائها ووظائفها نماذج خاصة لمن يقومون على خدمتها من بين الناس وتخلق بذلك ايضا هؤلاء الناس . واذا كان هذا صحيحا فان عملية تصنيع الحقيقة المادية من شأنها ان تضم الاشياء التي لا حياة فيها داخل وحدة شبه عضوية . واذا كانت هذه الوحدة كلية شاملة فهي ايضا اجتماعية وانسانية .

هنا نكتشف في الديالكتيك السارتري نوعا من العودة الى عنصر الفاعلية الذي اشتمل عليه الديالكتيك عند هيجل . وهذا العنصر هو الذي افتقده الديالكتيك الماركسي . وهو الذي جعل موقف سارتر نوعا من الجنوح بالديالكتيك الى حقيقته البشرية في وضعيتها . ومن هنا ارتكزت اشتراكية سارتر على التبادل الذي يتم بين الانسان وبين معطيات المادة في حقيقتها وفي صناعاتها .

هذا هو جوهر التفكير السياسي عند سارتر . وليس فيه ما يحتم على سارتر رفض جائزة مادية اعطيت اليه كنوع من التشجيع على العمل . وليس فيه ايضا رفض للتقييم الذي يحدث على مستوى انساني في اطار العمل الايجابي المفيد . ولكن الحقيقة هي ان سارتر لم يرد ان يضع نفسه في الوضع الذي يجعل رفضه الجائزة ذا بعد سياسي . لان اختلافه الجوهري عن منطوق الديالكتيك الماركسي واضح . ولان اي ارجاع لموقفه ذاك الى محاباة سياسية سيؤدي الى افساد مفهومه الاشتراكي المبني على مقومات فاعلية مختلفة . اعني اننا لو توخينا متابعة موقف سارتر سياسيا فقط لجعلنا من تصرفه ذاك افسادا لحقيقة مفهومه الجديد . وعلى الرغم مما ذاع من الاسباب

— التتمة على الصفحة ٦٦ —

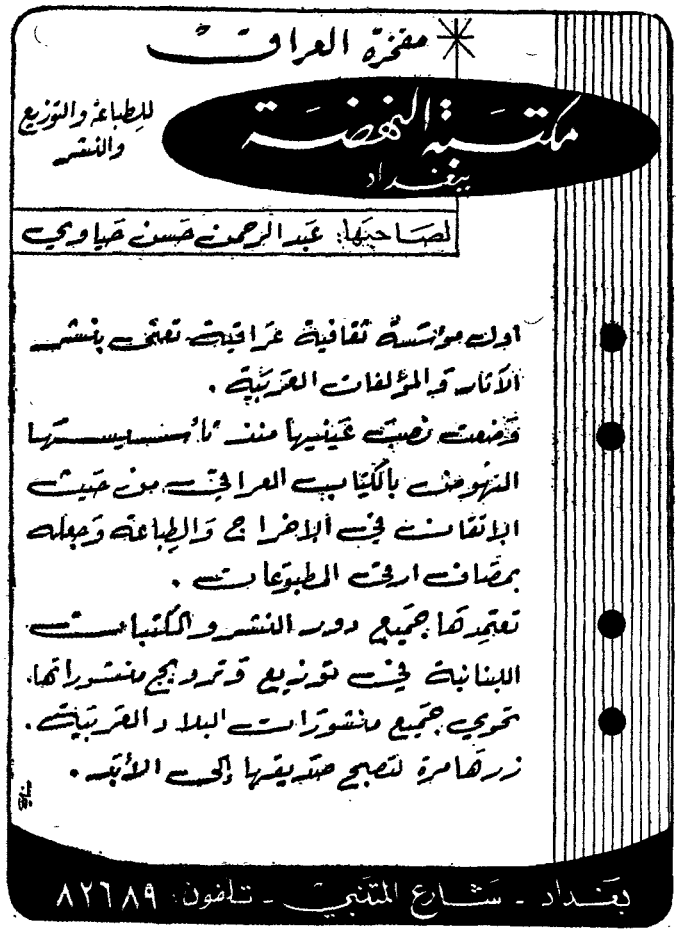

لماذا رفض سارتر الجائزة ؟

ـ تتمة المنشر على الصفحة ١٥ ـ

السياسية على لسانه فلا بد من الحذر من المبالغة في هذا الجانب . والجوهر النظري الذي تقوم عليه اشتراكية سارتر هي لون مغاير لما تقوم عليه الاشتراكيات السوفييتية .

ولا شك ان ذهنية سارتر الشديدة لم تكن ايضا من ناحية ثانية سببا في رفضه للجائزة . انه لم يعمد بعقله الى دراسة الامر على مستوى عقلي بحت . فهذا المستوى العقلي البحت قد يؤثر فيه لارتباط فكره بواقعه ارتباطا كليا . ان هناك وحدة حقيقية بين افكاره وافعاله. هناك ترابط كلي بين ما يعتقده وبين ما يؤديه في الحياة من تصرفات . ولكن الطابع العقلي ليس هنا صاحب الفاعلية الاولى والاخيرة في الاجراء الذي اتخذه .

لذلك علينا من ناحية ثالثة ان نكتشف سر رفض سارتر للجائزة في دائرة ما تمليه فلسفته الوجودية من حيث هي فلسفة مواقف يبزغ فيها السلوك تلقائيا .

والوجودية كما نعرف هي فلسفة المواقف . واذا شئنا ان نفطن الى حقيقة الامر فمن الضروري ان نربط رفض سارتر للجائزة بالموقف الذي عاش فيه هذه الايام الاخيرة . وسارتر يرفض في موقفه هذا ان تحدد اي سلطة من السلطات شرعية تفكيره . يرفض سارتر ان يجعل تقويم فنه وفلسفته راجعا الى اي هيئة . فهو نفسه التبرير الاكبر لكل مؤديات فكره . ولا يمكن ان يقبل سارتر ان تسبغ اية هيئة من الهيئات نوعا من الشرعية على انتاجه .

لهذا رفض سارتر الجائزة . رفضها لانه يريد ان يقول للناس ان ما اكتبه يحمل في ذاته شرعيته . ويمكن ان نفهم هذا اذا قارنا بين سارتر وبين نابليون والعقاد . فنابليون اخذ تاج الامبراطورية من يد البابا ليضعه بنفسه فوق رأسه . والعقاد تسلم جائزة الدولة التقديرية في الادب باسم الامة العربية وباسم الشعب العربي فقال : والفريضة الاخرى بل الاولى ـ فريضة الشكر على النعمة الكبرى واليد الطولى : نعمة الوعي القومي الذي وعانا فوعيناه ورعانا فرعيناه . فالحمد لله على ما الهم هذه الامة من وعي يقوم القيم في موازين الادب ، ومن رأي عام يجتهد بالرأي دائبا فيسمع له فيما اجتهد ودأب .

هكذا كان رفض سارتر نوعا من الاستناد الى نفسه بنفسه في تقييم فنونه وتقدير اعماله .

الفاهرة

عبد الفتاح الديدي

صدر حديثا :

عن دار الاداب

سيرتي الذاتية

بقلم

جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

تفخر « دار الاداب » بان تقدم الترجمة العربية الامينة لهذا الكتاب «سيرتي الذاتية » ، وهو احدث ما كتب المفكر الوجودي العالمي جان بول سارتر . وقد اشترت دار الاداب من دار غاليمار الفرنسية حقوق الترجمة العربية لهذا الكتاب الذي يعتبر من اروع ما كتب سارتر . وهذه الترجمة قد صدرت في بيروت قبل ان يصدر الكتاب بلغته الفرنسية الاصلية في باريس ...

ويروى سارتر في هذا الجزء من « سيرتي الذاتية»، وقد عنونه بـ « الكلمات » ، طفولته الاولى باسلوب جديد فذ لم يسبقه اليه كاتب ، وهو لا يقف عند الاحداث والتفاصيل الا ليطبق عليها مفاهيم مذهبه الفلسفي في صفاء ذهني عجيب وعمق لا يتميز به كثير من الادباء والفلاسفة المعاصرين .

غير ان سارتر يعالج موضوع طفولته ، وكيف تعلم القراءة ، وكيف بدأ يكتب ، وكيف راح يشترك في « التمثيلية » الكبيرة التي كان يعيشها اهله ومجتمعه ـ كل ذلك بروح ادبية رائعة تتميز بالصدق والصراحة، وتوفر لقاريء هذا الكتاب متعة روحية قلما يصيبها في اي كتاب اخر .

« سيرتي الذاتية » رائعة جديدة يضيفها احد كبار ادباء العالم الى مؤلفاته الغنية السابقة ويبلغ بها ذروة في الفن والابداع والاصالة .

الثمن : ٣٥٠ ق. ل

صدر حديثا